هذا ما كتبه زكريا القرداشي

إلى الشيخ الحاج عبداللّه

وفقه اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

أطالَ الله بقاء نائب أمير المؤمنين على طاعته، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوامٍ من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولًا بنعيم الآخرة إن هو أحسن إلى من ولي عليهم، وولى الله لنائب أمير المؤمنين بما ولى به أمور من هدى واجتبى وجعله بهم مقتديًا، أما بعد:

فإني أكتب إليكم بكتاب لم آلك فيه رشدا، ولم أدخر فيه نصحًا، فتدبرهُ بعقلك وردد فيه بصرك وارعه سمعَك؟ ثم اعقله بقلبك وأحضره بفهمك، ولا تغبن عنه ذهنك، فإن هذه الدنيا دار ظغن وليست بدار إقامة، وقد يحسب من لا يدري ما ثواب الله أنها دار ثواب، ومن لم يدر ما عقاب الله أنها دار عقاب، فأقم الحقَّ فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته، ولا تزغِ فتخن الأمانة التي كلفك بها إمام المؤمنين أبو بكر حرسه الله بعينه التي لا تنام، وتزغ رعيتك.

كتب أمير المومنين عمر رضي الله عنه رسالة لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه جاء فيها: "أقم الحدود و لو ساعة من نهار، و إذا عرض عليك أمران أحدهما لله و آخر للدنيا، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا، فإن الدنيا تنفذ و الآخرة تبقى، و عد مرضى المسلمين، و اشهد جنائزهم، و افتح بابك، و باشر أمرهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله جعلك أثقلهم حملا".

فتأمل في وصية أحد وزراء رسول الله ﷺ يتبين لك سبيل الفلاح، وتستضيئ طريقك بسراج النجاح. فاحذر يا عبد الله على نفسك يرحمك الله حذرًا غير تعزير، فلا يدري أحدنا متى يكون في زمرة الراحلين، والشقي من إذا ولاه الله ظلم، وإنما أكثر الوعيد يعم الظالمين، وهو إن حُرم على أهل الكفران فكيف بأهل الإيمان، وأكثر من ذلك أهل العلم العاملون، والذين قلما يوجد مثلهم، فبهم ينصر الله المستضعفين إن صلحوا، وصلاحهم بالاحسان إليهم وتقريبهم، فكيف يُفلح قوم يقربون العدو المتملق ويبعدون الصديق الناصح، والصحابة قد بايعوا رسول الله ﷺ

على النصح لكل مؤمن، ولقد قال أبو حمزة المهاجر رحمه الله: "لا تكتم عن أميرك أمرا ترى فب ذكره مصلحة شرعية كفساد على المجموع، فإن إخباره من النصح وعكسه الغش" [وصايا للجنود].

واحذر من بطانة السوء، أساميهم "**حكمة**" وهم أبعد الناس عنها، فهم أهل الردى والمطامع، ولو ثقفوا بك يا شيخنا لبِتّ تحت التراب من يوم لقياهم، عن النبي ﷺ أنه قال: "ما استخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمر بالخير وتحضه عليه، وبطانة تحضه بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله"، فقرب منكَ خير بطانةٍ كي تكون خير بطانةٍ لخيرِ خليفة كما نحسبه والله حسيبه.

واعلم رحمك الله، أنني لست كسابقي، فلست أرومُ مالا لنفسي يعلم الله، ولا لبني هاشم بيد أنني لست منهم، إنما أحبّ الموحدين وأحب لهم ما أحبه لنفسي، وأخاف عليهم من عذاب الله يوم القيامة، وما أكتب إليكم إلا لخوفي عليكم ولأجل الإصلاح، وأنتَ يا عبد الله لك سلطان التنفيذ، فلا تقف بين العبيد وشرعة ربهم، فهذا الفعل ظلم، ولا تعطل الشريعة للدفاع عن أقرب المقربين فكيف بمن هو دونهم، وانظر إلى قول خير الخلق ﷺ: "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"، فكيف بمن عاث في الأرض الفساد، وأهلكَ وفتن الناس في دينهم ودنياهم، وهو مع ذلك يرفض التحاكم لشريعة الله، وفعله في جنسه كفر، غير أنه "متأول"، وتأولهُ يعود على الأصل بالنقد، **فلإن سألته عن سبب استنجاده بك ورفضه للتحاكم لقال لك أن القضاة كفار، فأي دولة هذه تدعي أنها إسلامية إن كان قضاتها كفارًا** ؟ ولازم كلام مدعي الحكمة معروف معلوم، إن لم يكن يلتزم به ابتداءً.

إني أدعوكم يا شيخنا إلى التوبة، وهذا رسول الله قد كان يستغفر الله ويتوب إليه في المجلس أكثر من خمسين مرة، وأدعوكم إلى معاقبة من غلا أو جفا فخان وكان من المفسدين، فلإن فعلت ذلك، أحبتك الرعية أكثر ممن سبقك، وتقربت إلى الله أكثر، فنلت دنياك وفزت بآخرتك، ولإن أعرضت عن نصيحتي هذه وعن نصيحة أهل الصلاح الذين لا أساوي شسع نعالهم، فاعلم أن الله يمهل ولا يهمل، ولا نرجوا لك إلا الخيرَ ونطلب من الله أن يشرح صدرك للنصيحة.

وتأمل في ماقاله المجدد الأول باتفاق العلماء، عمر بن عبد العزيز، إذ قال له ابنه: "يا أبتاه، إني أراك قد أخرت أمورًا كثيرة كنت أحسبك لو وليت ساعة من نهار لعجلتها، ولوددت لو أنك قد فعلت ذلك"، فقال له عمر: "أي بني، إنك على حسن قسم الله لك، ولكن، والله ما استطيع أن أخرج إليهم شيئا من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا".

فالناس قد جبلت على الطمع في أيامنا هذه، وليس كل عنصر في دولة الخلافة حرسها الله يقاتل لأجل إقامة شرع الله مطلقا، فهناك من يبتغي متاعا من الدنيا بسبب الأزمة الحاصلة، فاقسم للجنود من الغنائم ما قسمه الله لهم، بشكل يكفيهم مؤنتهم ولا يشبعهم، فإن هم شبعوا تكاسلوا وركنوا إلى الأرض، وإن مُنِعُوا تمردوا، والوسط خير السبيلين.

ولا تكن يرحمك الله، كالذين قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أوباشا تهمهم الحمية الجاهلية، والقرابة والصداقة، فان استجارهم من هذا حاله أخذتهم العزة بالاثم ونصروه وإن كان ظالما مبطلا على المحق المظلوم، وهذا من أكبر فساد الدنيا والدين، وإنما حصلت حروب الأعراب ودخول الترك والمغول لأرض الإسلام بسبب هذا [السياسة الشرعية ٧١].

واعلم أن المناصب مفاتيح النصر، وخيرُ مفتاح من كان له خير حارس، وإنما يختار الحراس وفق الهدي النبوي لا وفق الرأي المذموم أو القبلية المنتنة، وقد كانت سنة رسول الله ﷺ أن الذي يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم هم أمراء الحرب، الذين هم نواب الخليفة على الأجناد، كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال ﷺ: "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا، ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه، ولا يجلس في بيته على تكرمته إلا بإذنه" [رواه مسلم].

وعلى هذا فقس يرحمك الله، فولِّي المناصب لمستحقيها، وهُم أعلم الناس بمنصبهم، إن كان القضاء فذاك، وإن كانت العسكرة فتلك، وإن كان الإفتاء فمن تحققت فيهم شروط الافتاء، وإن كان الإعلام فكل ما سبق، فيُجتنب التقول على

الله بغير علم ويدفنُ التعالم للأبد بإذن الله، وليس المقصود بقوله ﷺ: "أقرؤهم لكتاب الله" من نال إجازة في القراءات العشر أو أسانيدا في بعضها، بل أعمل الناس وأكثرهم حكمة وأعمقهم نظرا في مآلات الأفعال كما علم رسول الله ﷺ صحابته.

وليكن حاديك مقال الشيخ المجاهد ميسرة الغريب تقبله الله: "أن الحكمة التربوية تقتضي أن ينشأ شبابنا كما كان سلفنا في منهجهم الجامع بين اتباع الدليل وبين توضيح المسائل الاجتهادية للرعية دون لف ولا دوران، ليعرف كل من الأمير والمأمور حدوده فلا يظلم الأمير رعيته فيتعامل معهم كالعبيد تحت يده، ولا يتطاول المأمور على أميره ناسيًا أن لأميره عليه حقا، وأن لأميره صلاحيات ليست للرعية، وبهذا نجتنب كثيرا من المشادات بين إخوة المنهج إذا ما علموا أن المسائل الاجتهادية وان اختلفوا فيها مع الأمير فالقول قول الأمير ورأيه، فإذا صار ذلك العالم أميرا فعليه أن يطبق ما يراه الحق في دين الله". [إنما شفاء العي السؤال، ص:٢٧].

وإني وددت والله، لو بإمكاني نصحكم في السر، إلا أن الأبواب موصدة، ولا سبيل لذلك، ولعلكم تعلمون بالاعتقالات التي طالت زمرة من خيرة خلق الله، والتي ستزداد حتى ينالَ من آويتموه مراده، فتخسرون أنتم كذلك دنياكم والله وحده يعلم مراد هذا الشخص.

وأَختم كتابي هذا بما كتبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: "أما بعد، فإني كتبت إليك بكتاب، لم آلك نفسي فيه خيرا، ألزم خمس خصال، يسلم لك دينك و تحظ بأفضل حظك، إذ حضرك الخصمان، فعليك بالبينات العدول، و الأيمان القاطعة، ثم أدنِ الضعيف حتى ينبسط لسانه، و يجترئ قلبه، و تعاهد الغريب، فإنه إذا طال حبسه، ترك حاجته و انصرف إلى أهله، و إذا الذي أبطل حقه، من لم يرفع به رأسا. و احرص على الصلح، ما لم يبن لك القضاء و السلام".

كتبه

زكريا القرداشي

شوال – ١٤٣٩